جدلية النص والعقل وتطبيقاتها الكلامية عند ابن خلدون

إعداد

الدكتور / عبدالرؤف محمود عبدالرؤف

أستاذ العقيدة والفلسفة المشارك

بجامعة الوصل وجامعة الأزهر الشريف

جدلية النص والعقل، وتطبيقاتها الكلامية عند ابن خلدون

عبدالرؤف محمود عبدالرؤف
قسم العقيدة والفلسفة، بجامعة الوصل، وكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا، جامعة الأزهر الشريف
البريد الإلكتروني: abdelraoufmahmoud.٢٧@azhar.edu.eg

الملخص :

يهدف البحث إلى بيان موقف ابن خلدون كممثل لمنهج المدرسة الأشعرية في مرحلة الوسط والفترة المتأخرة، من جدلية النص والعقل، من حيث الاستدلال والأحقية بالتقديم، وكيفية تطبيق تلك الجدلية في علم الكلام، وقد انتهجت المنهج الاستقرائي والتحليلي حيث تم استقراء أقوال ابن خلدون المتعلقة بالاستدلال بالنص والعقل في أبواب علم الكلام (الإلهيات والنبوات والسمعيات) وتطبيقاتها، وقد قسمت البحث إلى ثلاثة مباحث رئيسة، المبحث الأول: التعريف بمفردات البحث، المبحث الثاني: أدوات المعرفة عند ابن خلدون، المبحث الثالث: جدلية النص والعقل وتطبيقاتها في علم الكلام، وقد توصل البحث إلى أن ابن خلدون فرق في الاستدلال بين الإثبات والدفاع، فجعل مجال الإثبات النص، وللدفاع الدليل العقلي المبني على النص، مع عدم تقديم العقل على النص إذا اجتمعا، وبالتالي فلا يوجد تعارض بين النص والعقل في الاستدلال حيث إن لكل منهما مجاله المختلف عن الآخر، وهذا هو الحال عند المدرسة الأشعرية متقدمين ومتأخرين، فلم يؤثر عن المعتبرين من علمائهم تقديم العقل على النص عند اجتماعهما.

الكلمات المفتاحية: ابن خلدون– النص– العقل– جدلية النص والعقل– التطبيقات الكلامية.

The dialectics of text and reason, and its verbal applications according to Ibn Khaldun

Abdel Raouf Mahmoud Abdel Raouf
Department Doctrine and Philosophy, Al Wasl University, and Faculty of Fundamentals of Religion and Advocacy in Tanta, al-Azhar University.
Email: abdelraoufmahmoud.٢٧@azhar.edu.eg

Abstract:

The research aims to explain the position of Ibn Khaldun as a representative of the approach of the Ash'ari school in the middle and late period, from the dialectic of the text and the mind, in terms of inference and eligibility to apply, and how to apply that dialectic in theology. And the mind in the chapters of the science of speech (theology, prophecies, and hearings) and their applications, and the research was divided into three main sections, the first topic: defining the research vocabulary, the second topic: the tools of knowledge at Ibn Khaldun, the third topic: the dialectic of the text and the mind and its applications in the science of speech, and the research reached Until Ibn Khaldun distinguished in reasoning between proof and defense, so he made the field of proof the text, and the defense has the rational evidence based on the text, with the mind not giving preference to the text if they meet, and therefore there is no conflict between the text and the reason in reasoning, since each of them has its own field different from the other, This is the case with the Ash'ari school, early and late, so it did not affect the respected of their scholars to give reason to the text when they meet.

keywords: Ibn Khaldun - the text - the mind - the dialectic of the text and the mind - verbal applications.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الذي بيده الأمر وهو على كل شيء قدير . والصلاة والسلام على أفضل خلق الله أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد

فهذا بحث في جدلية النص والعقل، تلك المسألة التي لطالما حظيت بمجادلات كلامية، واختلافات عميقة بين الفرق المختلفة، فمن قائل بضرورة خضوع علم العقيدة للنص فقط حسب ما يقتضيه ظاهره، دون الرجوع إلى العقل في أي من مراحله، ومن قائل بضرورة تقديم العقل على النص في مسائل الاعتقاد حتى تقوم الحجة على العباد، مع استبعاد النص تماما، ثم ظهور فريق يجمع بين الاثنين بوسطية معتدلة دون الميل لدليل على حساب آخر، ففرق بين الإثبات والدفاع، ونوعية الاستدلال في كل منهما، فأثبت النص فقط في الاستدلال على الإثبات، ثم ربط العقل بالنص ربطا وثيقا لا ينفك أحدهما عن الآخر في حالة الاستدلال والدفاع عن العقيدة، ويمثل هذا الجانب خير مثال: الإمام أبو الحسن الأشعري وأتباعه، الذين دافعو عن العقيدة بربطهم بين النص والعقل، وظل الأمر كذلك حتى اتهمهم بعض المحدثين بإيثارهم العقل على النص شأنهم شأن المعتزلة في ذلك.

فيهدف البحث إلى بيان موقف ابن خلدون، بصفته أشعريا يمثل مرحلة الوسط وجزءا من مرحلة المتأخرين، مع كونه عالم تاريخ واجتماع، وصاحب باع طويل في فلسفة الدين، من هذه الجدلية، هل قدم النص وألغى العقل؟ أم اكتفى بالعقل؟ أم جمع بينهما على ما هو الحال في مذهب الإمام الأشعري؟ وكيف طبق ذلك في مسائل علم الكلام.

وقد تضمن البحث ثلاثة مباحث رئيسة:

المبحث الأول: التعريف بمفردات البحث.

المبحث الثاني: مصادر المعرفة عند ابن خلدون

المبحث الثالث: جدلية النص والعقل وتطبيقاتها في علم الكلام

أسأل الله تعالى العون والتوفيق والرشاد .

المبحث الأول
التعريف بمفردات البحث

أولا : التعريف بابن خلدون

عبدالرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن خلدون الاشبيلي الحضرمي، ولد سنة ٧٣٢ بتونس(١) ، (فيلسوف التاريخ الإسلامي، والعالم المحقّق الكبير، وأحد نوادر الدهر علما وثقافة وتحصيلا وذكاء، صاحب «التاريخ» الذي اشتهرت منه «المقدمة» شهرة لم تكتب إلا للقلّة من المصنفات الإسلامية في جميع العصور، حتى دعي بصاحب «المقدمة» أو دعيت هي ب «مقدمة ابن خلدون» وكأنه لم يصنّف غيرها) (٢)، (كان فصيحا، جميل الصورة، عاقلا، صادق اللهجة، عزوفا عن الضيم، طامحا للمراتب العليا) (٣).

وله من المؤلفات الكثير، أعظمها وأشهرها كما قدمنا كتابه في التاريخ المعروف بـــ: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، وقد اشتهرت منه المقدمة حتى دعي بصاحب المقدمة ، وتعد من أصول علم الاجتماع، وقد ترجمـــت للعديد من اللغات، وذاع صيتها وشـــهرتها في كافة أقطار العالم المعتنين بعلم الاجتماع وسائر العلوم الإسلامية، ولا تكاد تخلو منها مكتبة في الشرق أو في الغرب (٤).

ومن كتبه: (شرح البردة وكتاب في الحساب، ورسالة في المنطق، وشفاء السائل لتهذيب المسائل، وله شعر) (٥)، وله أيضا لباب المحصل في علم الكلام، وهو كتاب لخص فيه كتاب المحصل في أصول الدين للإمام الرازي، اختصر فيه عبارته، وأضاف

---

(١) إسماعيل البابابي: هدية العارفين جـــ ١ ص ٥٢٩ . دار إحياء التراث العربي. بيروت– لبنان.

(٢) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب جـــ ١ ص ٧١. تحقيق محمود الأرناؤوط. دار ابن كثير. دمشق– بيروت. ط ١ ١٤٠٦هـــ .١٩٨٦م.

(٣) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب جـــ ١ ص ٧١. تحقيق محمود الأرناؤوط. دار ابن كثير. دمشق– بيروت. ط ١ ١٤٠٦هـــ .١٩٨٦م.

(٤) المرجع السابق ص ٧٢ بتصرف.

(٥) الزركلي: الأعلام جـــ ٣ ص ٣٣٠. دار العلم للملايين ط ١٥ . ٢٠٠٢م.

تعليقات معبرا عنها بقوله : (ولقائل أن يقول)، وعبارات أخرى من عند نفسه عبر عنها بقوله (لنا) (١).

نشا في تونس وأخذ العلم عن أكابر علمائها في القرآن الكريم واللغة العربية، وعلوم المعقول، وبرع في العلوم والفنون والأدب، وولي كتابة السر بمدينة فاس بالمغرب، ثم تنقل في البلاد متقلدا مناصب مختلفة، ثم رجع إلى تونس فأكرمه سلطانها، ثم حاول نفر من الناس الإساءة إليه عن طريق تأليب السلطان عليه، فعلم بالأمر، فما كان منه إلا أن رحل إلى المشرق، فحطّت به رحاله في القاهرة، فأكرمه سلطان مصر في ذلك العصر السلطان برقوق، وولي قضاء المالكية فيها، ثم عزل، وولي مشيخة المدرسة البيبرسية، ثم عزل عنها أيضا، ثم ولي القضاء مرارا، آخرها في رمضان من سنة ثمان وثمانمائة، فباشره ثمانية أيام، فأدركه أجله، ولم يتزيّ بزيّ القضاة في مصر، محتفظا بزيّ بلاده.(٢)

و توفي في القاهرة في عام ٨٠٨ هـ (٣) .

وقد ترجم ابن خلدون لحياته وسيرته، والأحداث التي مر بها وهجرته، حتى استقراره بمصر في ذيل كتابه تاريخ ابن خلدون(٤).

ثانيا: المقصود بالجدلية

يطلق الجدل في اللغة على معان كثيرة، منها شدة الفتل، يقال: جدلت الحبل إذا شددت فتله، وفتلته فتلا محكما(٥) ، ويقال للصرع على الحقيقة في الترال، وعلى المجاز في شدة الخصومة، فيقال: رجل جدل إذا كان أقوى في الخصام، والجدل يقال على

(١) د.عباس سليمان: مقدمة المحقق: لباب المحصل ص ٩ . دار المعرفة الجامعية .١٩٩٦م.

(٢) شذرات الذهب ص ٧١ بتصرف يسير.

(٣) الأعلام جـ ٣ ص ٣٣٠.

(٤) انظر: ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر جـ ٧ ص ٥٠٣ – ٧٤٢. تحقيق: خليل شحادة. دار الفكر- بيروت. لبنان. ط٢ ١٤٠٨هـ . ١٩٨٨م.

(٥) ابن منظور: لسان العرب جـ ١١ ص ١٠٣. دار صادر. بيروت. لبنان ط ٣ ١٤١٤هـ.

مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة: المناظرة والمخاصمة(١).

ويطلق الجدل حديثا على عدد من المعاني، ويعني البحث منها:

(طريقة الفكر الذي يوجه حركته إلى جهات متعارضة تؤثر فيه تأثيرا متقابلا يفضي في النهاية إلى تقدمه، كجـــدل الحدس والقياس، والحب والواجب، والعبد والسيد). (٢)

واللحظة الجدلية هي: (الانتقال من حد إلى آخر مناقض له، أو هي انطلاق الفكر بتأثير حاجته إلى مجاوزة التناقض) (٣).

ثالثا: النص

يطلق النص على : (ما ازداد وضوحا على الظاهر لمعنى المتكلم، وهو سوق الكلام لأجل ذلك المعنى) (٤).

(وأصله أن يتعدى بنفسه؛ لأن معناه الرفع البالغ، ومنه منصة العروس، ثم نقل في الاصطلاح إلى الكتاب والسنة وإلى ما لا يحتمل إلا معنى واحدا، ويعبر عنه بالنقل) (٥) و هذا هو المراد بالنص في عنوان البحث، أي الكتاب والسنة.

رابعا: العقل

العقل ضد الجهل، والصحيح أنه جوهر مجرد يدرك الفانيات بالوسائط

---

(١) المرجع السابق: جـــ ١١ ص ١٠٤-١٠٥ . وانظر: جميل صليبا: المعجم الفلسفي جـــ ١ س ٣٩٢ . دار الكتاب اللبناني. بيروت- لبنان ١٩٨٢م.

(٢) المعجم الفلسفي جـــ ١ ص ٣٩٤.

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) الجرجاني: التعريفات ص ٢٤١. دار الكتب العلمية . بيروت-لبنان. ١٤٠٣هـــ، ١٩٨٣م.

(٥) أبو البقاء الكفوي: الكليات ص ٩٠٨. تحقيق: عدنان درويش- محمد المصري. مؤسسة الرسالة . بيروت- لبنان. بدون تاريخ.

والمحسوسات بالمشاهدة(١).

ويطلق لفظ العقل أيضا على مجموع الوظائف النفسية المتعلقة بتحصيل المعرفة ، كالإدراك والتداعي، والذاكرة والتخيل والحكم والاستدلال . (٢)

وبذلك يتضح أن ثمت فرق كبير بين النص من حيث ثبوته، ودلالته، والعقل من حيث عمله وإدراكه.

خامسا: المقصود بجدلية النص والعقل

اختلف الناس قديما وحديثا، في النص والعقل، أيهما أولى بالقبول دون غيره؟ أو أيهما أولى بالتقديم على الآخر؟ وما هي شروط الدلالة في كل منهما للوصول لليقين؟ وأيهما يحقق اليقين بعد شروطه، هل هو النص وحده؟ أو العقل وحده؟ أم لا بد من اجتماعهما معا لتحقيق اليقين الذي لا يزول بالشك.

كل هذه التساؤلات وغيرها، شددت الخصومة بين النصيين والعقليين، بل نقلتها إلى النص والعقل ذاتهما.

وجعلت حالات الاستدلال بهما يعتريها الجدل كالحبل المفتول لا يدري أي طرفيه من الآخر، وكذلك أثارت بينهما خصومة استدلالية كبيرة.

فالنصيون توقفوا تماما عند حدود النص على اعتبار أنه لا يفيد إلا معنى واحدا، فألغو العقل تماما تحت أي استدلال من استدلالاته، ومحتجين بأن النص فيه كفاية للدلالة على المراد في العلم والعمل.

وأما العقليون فقدموا العقل وآثروه على النص في غالب الأحيان تماما محتجين بأن العقل وحده كاف كمصدر موثوق للمعرفة العلمية والعملية، فبه تمتاز الأشياء ويظهر صحتها من عدمه.

---

(١) التعريفات ص ١٥٢.

(٢) المعجم الفلسفي جـ ٢ ص ٨٩.

ويمثل الفريق الأول: فرق الخوارج ومن حذا حذوهم في الاستدلال، ويمثل الفريق الثاني: المعتزلة ومن حذا حذوهم في الاستدلال.

والحق أن كلا الطرفين قد شطط في تشبثه بفكرته وحدها، مما أدى لظهور طائفة علمية جمعت بين الاثنين، فاستدلوا بالنص بعد وضع شروط وقواعد في النص المستدَل به، والشخص المستدِل، وكذلك في العقل، ويمثل هذا الفريق خير تمثيل الإمام أبو الحسن الأشعري ومن سار على طريقته في الاستدلال، والذين رأوا في العقل دليلا مساندا للنص في الإثبات، ومعضدا وفاعلا في الدفاع، فربطوا بينهما مع إعطاء كل منهما شروطا واجبة في الاستدلال.

ثم ادعى فريق من المحدثين أن متأخري أتباع الإمام الأشعري قدموا العقل على النص وجعلوه أساسا في الاستدلال والدفاع دون النص، وأن العقل مقدم حال التعارض مطلقا(١).

فما هو موقف ابن خلدون من هذه الجدلية القائمة؟ وما هو الدليل المفيد لليقين عنده؟ وهل هو دليل واحد أم ممتزج؟ وهل يطبقه في كل المسائل؟ أم أن كل مسألة لها طريقتها في الاستدلال مختلفة عن الأخرى؟ وما هو موقفه من التعارض وتقديم أحد الدليلين على الآخر؟

هذا ما سيحاول البحث الإجابة عنه في قادم الصفحات بإذن الله، والذي يقتضي بيان بعض المسائل، من أهمها المبحث القادم، وهو بيان موقف ابن خلدون من الأدلة عموما.

---

(١) للاستزادة: انظر: الغرسي: منهج الأشاعرة بين الحقيقة والأوهام ص ٧٦ . دار القادري للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١ ٢٠٠٨.

المبحث الثاني
مصادر المعرفة عند ابن خلدون

تمهيد

تتنوع مصادر المعرفة حسب سياق الاستدلال، وطريقته، والعلم المستدل عليه، ففي علم الكلام تنحصر المصادر والطرائق في النص والعقل، وما ينتج عنهما، وفي السطور القادمة نستجلي بحول الله تعالى مصادر وطرائق المعرفة عند ابن خلدون.

أولا: النص عند ابن خلدون

النص عند ابن خلدون أخص من النقل، فالنص هو الكتاب والسنة، والنقل يشملهما والإجماع، يقول ابن خلدون: (وأصل هذه العلوم النّقلية كلّها هي الشّرعيّات من الكتاب والسّنّة الّتي هي مشروعة لنا من الله ورسوله وما يتعلّق بذلك من العلوم الّتي تهيّئوها للإفادة. ثمّ يستتبع ذلك علوم اللّسان العربيّ الّذي هو لسان الملّة وبه نزّل القرآن. وأصناف هذه العلوم النّقليّة كثيرة لأنّ المكلّف يجب عليه أن يعرف أحكام الله تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه وهي مأخوذة من الكتاب والسّنّة بالنّصّ أو بالإجماع أو بالإلحاق) (١)، وهي العلوم المتفرعة عن هذه الأصول مثل علوم التفسير والحديث، والفقه وأصوله (٢).

وهذه العلوم النّقليّة الوضعيّة مستندة إلى الخبر عن الواضع الشّرعيّ، ولا مجال فيها للعقل إلّا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول؛ لأنّ الجزئيّات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النّقل الكلّيّ بمجرّد وضعه فتحتاج إلى الإلحاق بوجه قياسيّ.

إلّا أنّ هذا القياس يتفرّع عن الخبر بثبوت الحكم في الأصل وهو نقليّ فرجع هذا القياس إلى النّقل لتفرّعه عنه(٣) .

---

(١) المقدمة ص ٥٥٠.

(٢) المرجع السابق نفسه بتصرف.

(٣) المقدمة ص ٥٤٩-٥٥٠

ثانيا: العقل

العقل هو ميزة الإنسان دون غيره، يحصل به التفكير والتمييز، (فهو الخاصّة البشريّة الّتي تميّز بها البشر عن غيره من الحيوان. وعلى قدر حصول الأسباب والمسبّبات في الفكر مرتّبة تكون إنسانيّته. فمن النّاس من تتوالى له السببيّة في مرتبتين أو ثلاث، ومنهم من لا يتجاوزها، ومنهم من ينتهي إلى خمس أو ست فتكون إنسانيّته أعلى) (١).

وليس العقل مرتبة واحدة، وليس الإدراك والتفكير على قدر واحد في البشر جميعا بل هو متفاوت ، فالعقول عند ابن خلدون ثلاثة حسب الترتيب التالي:

١ – العقل التمييزي: هو الذي يوقع الإنسان به أفعاله على انتظام(٢) ، وبه يتميز الإنسان عن سائر الحيوان. (٣).

٢ – العقل التجريبي: هو الذي يقتضي به العلم بالآراء والمصالح والمفاسد من أبناء جنسه. (٤)

فهو يدرك بالتجربة وبها يستفاد، لأنّها معان جزئيّة تتعلّق بالمحسوسات وصدقها وكذبها، يظهر قريبا في الواقع، فيستفيد طالبها حصول العلم بها من ذلك. ويستفيد كلّ واحد من البشر القدر الّذي يسّر له منها مقتنصا له بالتّجربة بين الواقع في معاملة أبناء جنسه، حتّى يتعيّن له ما يجب وينبغي، فعلا وتركا. وتحصل في ملابسة الملكة في معاملة أبناء جنسه. ومن تتبّع ذلك سائر عمره حصل له العثور على كلّ قضيّة. ولا بدّ بما تسعه التجربة من الزّمن. (٥)

---

(١) المقدمة ص ٥٩٣

(٢) المقدمة ص ٥٩٩

(٣) نفسه

(٤) نفسه

(٥) المقدمة ص ٥٩٤–٥٩٥. وقد قسم الإمام المحاسبي العقل قريبا مما قسمه ابن خلدون، فابن خلدون إذا يعد سائرا على نفس النهج. انظر: الإمام المحاسبي: الوصايا ص ٢٥٢.تحقيق : عبدالقادر عطا . دار الكتب =

والعقل التجريبي لا يقف عند حدود المعارف المكتسبة، بل إنه يزيد ويكثر معارفه بتعدد الاستفادة من التجارب، فلهذا كانت الحنكة في التجربة تفيد عقلا، والحضارة الكاملة تفيد عقلا؛ لأنها مجتمعة من صنائع في المنزل والمعاشرة، وتحصيل الآداب، وأعظمها الكتابة ، وأمور الدين التي هي كلها قوانين تنتظم علوما يتحصل فيها زيادة عقل. (١)

فالمعرفة تزيد بالعقل التجريبي القائم على النظر العقلي الذي يكسب العلوم المجهولة، فيكسب بذلك ملكة من التعقل تكون زيادة عقل، ويحصل به قوة. (٢)

٣ – العقل النظري: هو الذي يحصل به تصور الموجودات غائبا وشاهدا على ما هي عليه. (٣)

ثالثا: الوجدان الصحيح

يعرف الوجدان بأنه: (إحساس الباطن بما هو فيه، وأصله من الوجد، وهو ما يصادف القلب ، ويرد عليه بلا تكلف ولا تصنع) (٤) ،وقيل: (الوجد : رفع الحجاب عن القلب ثم مشاهدة الحق وملاحظة الغيب، والوجداني على القول المشهور هو ما يجده كلّ أحد من نفسه عقليا صرفا كان كأحوال نفسه أو مدركا بواسطة قوة باطنية) (٥).

=

العلمية بيروت لبنان ط ١. ١٤٠٦ه، وانظر للمؤلف: منهج الإمام المحاسبي في الوصول لليقين ص ٥٢. بحث منشور في حولية كلية أصول الدين بطنطا العدد ٩ . ٢٠١٧م.

(١) نفسه ص ٥٤١ بتصرف.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه ص ٥٩٩.

(٤) التوقيف على مهام التعاريف ص ٣٣٤.

(٥) التهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم جـ ٢ ص ١٧٥٨.بتصرف يسير. تحقيق: د. علي دحروج. مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٩٩٦م.

يعتبر ابن خلدون الوجـــدان الصحيـــح أو كما يعبر عنـــه أحيـــانا بـــ (كشف الحجاب) (١) أحد مصادر المعرفة في المسائل المتعلقة بالإيمان والاعتقاد.

ففي كونه واحدا من طرق المعرفة يقول ابن خلدون: (تبيّن أنّ البشر جاهل بالطبع للتردّد في علمه، وعالم بالكسب والصناعة لتحصيله المطلوب بفكرة الشروط الصناعيّة. وكشف الحجاب الّذي أشرنا إليه إنّما هو بالرّياضة بالأذكار الّتي أفضلها صلاة تنتهي عن الفحشاء والمنكر، وبالتنزّه عن المتناولات المهمّة ورأسها الصوم، وبالوجهة إلى الله بجميع قواه) . (٢)

فكشف الحجاب أو الوجدان الصحيح مصدر معرفي يحدث في النفس كما يحدث غيره من العلوم، وهذا النوع قد يكون مكتسبا بالأذكار والعبادات والزهد والتوجه الكامل لله سبحانه وتعالى.

وهذا النوع لابد فيه من الاستقامة على حد قول الغزالي والذي تابعه عليه ابن خلدون حين قال: (هذا الكشف لا يكون صحيحا إلّا إذا كان ناشئا عن الاستقامة ؛ لأنّ الكشف قد يحصل لصاحب الجوع والخلوة(٣)، وإن لم يكن هناك استقامة كالسّحرة وغيرهم من المرتاضين) (٤).

ويمثل لذلك بالمرآة (فالمرآة الصّقيلة إذا كانت محدّبة أو مقعّرة وحوذي بها جهة المرئي فإنّه يتشكّل فيه معوجّا على غير صورته. وإن كانت مسطّحة تشكّل فيها المرئيّ صحيحا. فالاستقامة للنّفس كالانبساط للمرآة فيما ينطبع فيها من الأحوال) (٥).

وهذا النوع من المعرفة ليس متفق عليه أو مسلم به من الجميع، حيث (قصرت

---

(١) المقدمة ص ٥٩٧

(٢) نفسه .

(٣) انظر: الإمام الغزالي: إحياء علوم الدين جـــ ٣ ص ٧٨. دار المعرفة. بيروت- لبنان.

(٤) المقدمة ص ٦١٤.

(٥) نفسه ص ٦١٤-٦١٥.

مدارك من لم يشاركهم في طريقهم عن فهم أذواقهم ومواجدهم في ذلك. وأهل الفتيا بين منكر عليهم ومسلّم لهم، وليس البرهان والدّليل بنافع في هذا الطّريق ردّا وقبولا إذ هي من قبيل الوجدانيّات) (١).

ويتضح من النص السابق أن الكشف والوجدان لا تتحقق بهما معارف يقينية دائما، وأنهما منفصلان عن المعارف النصية والعقلية، وأنه قد يتحقق بالكشف أشياء لا تتحقق بالعقل أو حتى بظاهر النص، وهذه المعرفة لا تتعدى الشخص نفسه وإن بلغت اليقين، فهي ليست معرفة عامة(٢).

ويمثل هذا النوع الرؤيا المنامية، فبعد أن قسم ابن خلدون العوالم إلى ثلاث، وهي عالم الحس، والنفس الإنسانية، وعالم الأرواح، وتحدث عن كل واحد منها بآلته، وهي الحس في الأول، والفكر في الثاني، قال عن عالم الأرواح :(ثمّ نستدلّ على عالم ثالث فوقنا بما نجد فينا من آثاره الّتي تلقى في أفئدتنا كالإرادات والوجهات، نحو الحركات الفعليّة، فنعلم أنّ هناك فاعلا يبعثنا عليها من عالم فوق عالمنا وهو عالم الأرواح والملائكة. وفيه ذوات مدركة لوجود آثارها فينا مع ما بيننا وبينها من المغايرة) (٣)، وآلة هذا العالم ودليله : (الرّؤيا وما نجد في النوم، ويلقى إلينا فيه من الأمور الّتي نحن في غفلة عنها في اليقظة، وتطابق الواقع في الصّحيحة منها، فنعلم أنّها حقّ ومن عالم الحقّ) (٤)، وهذا غير الأضغاث أو حديث النفس، فإنما هي (صور خياليّة يخزنها الإدراك في الباطن ويجول فيها الفكر بعد الغيبة عن الحسّ، ولا نجد على هذا العالم الروحانيّ برهانا أوضح من هذا، فنعلمه كذلك على الجملة ولا ندرك له تفصيلا) (٥).

---

(١) نفسه ص ٦١٥.

(٢) انظر: الإمام الغزالي: إحياء علوم الدين جـــ ٣ ص ١٦.

(٣) المقدمة ص ٥٩٥

(٤) نفسه ص ٥٩٥ .

(٥) نفسه ص ٥٩٥ .

ولأنه ليس طريقا يقينيا في المعرفة والدليل والبرهان، فقد جعله ابن خلدون للممارسة الفعلية الناتجة عن النص والعقل، يقول: (ثمّ إنّ المعتبر في هذا التّوحيد ليس هو الإيمان فقط الّذي هو تصديق حكميّ فإنّ ذلك من حديث النّفس وإنّما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيّف بها النّفس كما أنّ المطلوب من الأعمال والعبادات أيضا حصول ملكة الطّاعة والانقياد وتفريغ القلب عن شواغل ما سوى المعبود حتّى ينقلب المريد السّالك ربّانيّا. والفرق بين الحال والعلم في العقائد فرق ما بين القول والاتّصاف) (١)، ويضرب لذلك مثالا بموقف الإنسان المتعدد بالرحمة على اليتيم والمسكين، (وشرحه أنّ كثيرا من النّاس يعلم أنّ رحمة اليتيم والمسكين قربة إلى الله تعالى مندوب إليها ويقول بذلك ويعترف به ويذكر مأخذه من الشّريعة وهو لو رأى يتيما أو مسكينا من أبناء المستضعفين لفرّ عنه واستنكف أن يباشره فضلا عن التّمسّح عليه للرّحمة وما بعد ذلك من مقامات العطف والحنوّ والصّدقة. فهذا إنّما حصل له من رحمة اليتيم مقام العلم ولم يحصل له مقام الحال والاتّصاف.

ومن النّاس من يحصل له مع مقام العلم والاعتراف بأنّ رحمة المسكين قربة إلى الله تعالى مقام آخر أعلى من الأوّل وهو الاتّصاف بالرّحمة وحصول ملكتها. فمتى رأى يتيما أو مسكينا بادر إليه ومسح عليه والتمس الثّواب في الشّفقة عليه لا يكاد يصبر عن ذلك ولو دفع عنه. ثمّ يتصدّق عليه بما حضره من ذات يده وكذا علمك بالتّوحيد مع اتّصافك به والعلم حاصل عن الاتّصاف ضرورة وهو أوثق مبنى من العلم الحاصل قبل الاتّصاف. وليس الاتّصاف بحاصل عن مجرّد العلم حتّى يقع العمل ويتكرّر مرارا غير منحصرة فترسخ الملكة ويحصل الاتّصاف والتّحقيق ويجيء العلم الثّاني النّافع في الآخرة. فإنّ العلم الأوّل المجرّد عن الاتّصاف قليل الجدوى والنّفع وهذا علم أكثر النّظّار والمطلوب إنّما هو العلم الحاليّ النّاشئ عن العادة(٢).

---

(١) نفسه ص ٥٨٣ .

(٢) نفسه ص ٥٨٣ .

وبهذا تكتمل ثلاثية المعرفة عند ابن خلدون (النص، العقل، والوجدان)، وهي متعلقة بالتكاليف إثباتا ونفيا وتحقيقا(فالتّكاليف منها بدنيّ، ومنها قلبي، وهو المختصّ بالإيمان وما يجب أن يعتقد ممّا لا يعتقد، وهذه هي العقائد الإيمانيّة في الذّات والصّفات وأمور الحشر والنّعيم والعذاب والقدر. والحجاج عن هذه بالأدلّة العقليّة هو علم الكلام(١).

فابن خلدون إذا يرى تنوع الاستدلال بتنوع العلوم، فليس ثمت دليل واحد يتم الاستئثار به في علم واحد، فالدليل يتغير بتغير المستدل عليه، ونوع الاستدلال.

لكن من العبارات السابقة استوقفتني عبارة : الحجاج عن العقائد بالأدلة العقلية هو علم الكلام، فهل يفهم منها أنه لا جدلية بين النص والعقل في علم الكلام؟ وأن علم الكلام عند ابن خلدون عقلي صرف، أم هو خاص في باب الحجاج فقط دون الاثبات كأحد طرفي الأدلة (النص والعقل)، أم أن لابن خلدون نظرة تفصيلية أخرى.

وإجابة هذه الأسئلة تتضح في المبحث التالي.

---

(١) نفسه ص ٥٥٠.

المبحث الثالث :
جدلية النص والعقل في علم الكلام وتطبيقاتها

تمهيد

ينقسم علم الكلام في مسائله المختلفة إلى ثلاثة مباحث رئيسة، وهي الإلهيات، والنبوات، والسمعيات أو أمور الغيب.

وهذا هو التقسيم الشائع لمسائل علم الكلام، وهو نفس التقسيم الذي ذهب إليه ابن خلدون، الذي يرى المغايرة بين العقيدة وعلمها، كما يرى المغايرة بين الاعتقاد والحال أو ممارسة الاعتقاد كما مر.

ولعلم الكلام عنده مهمة رئيسية عرفه بها قائلا: (علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة والمنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف، وأهل السنة) (١).

ويلاحظ في هذا التعريف أن ابن خلدون جعل الدليل العقلي هو الركن الأساس في علم الكلام، ويرى أن الهدف من علم الكلام هو الحجاج عن العقيدة باستخدام الدليل العقلي.

لكن ابن خلدون لم يطبق هذا التعريف على سائر التقسيمات، فاختلف الأمر في الإلهيات عن النبوات وعن السمعيات.

أولا: الإلهيات

ابتدأ ابن خلدون حديثه في باب الإلهيات عن التوحيد، وصدر حديثه عن التوحيد بإبراز دليل عقلي، معتبرا إياه أقرب الطرق التي يتفق عليها الجميع؛ وذلك لأن مناط الدليل العقلي متى صدق في تركيبه حصلت منه الإفادة، وإذا كان مشتقا من دليل سمعي جمع بين الحسنيين، فيقول: (سرّ هذه العقائد الإيمانيّة هو التّوحيد. فلنقدّم هنا لطيفة في

(١) المقدمة ص ٥٨٠.

برهان عقليّ يكشف لنا عن التّوحيد على أقرب الطّرق والمآخذ) [١]، وهذا الدليل يعرف عند المتكلمين بسبب الأسباب[٢]،، ويصوغه ابن خلدون على النحو التالي: (اعلم أنّ الحوادث في عالم الكائنات سواء كانت من الذّوات أو من الأفعال البشريّة أو الحيوانيّة فلا بدّ لها من أسباب متقدّمة عليها بها تقع في مستقرّ العادة وعنها يتمّ كونه. وكلّ واحد من هذه الأسباب حادث أيضا فلا بدّ له من أسباب أخرى ولا تزال تلك الأسباب مرتقية حتّى تنتهي إلى مسبّب الأسباب وموجدها وخالقها سبحانه لا إله إلّا هو) [٣].

وهو سبحانه وتعالى منزه عن مشابهة المخلوقين : (وإلّا لما صحّ أنّه خالق لهم لعدم الفارق على هذا التّقدير ثمّ تنزيهه عن صفات النّقص وإلّا لشابه المخلوقين ثمّ توحيده بالإيجاد[٤] وإلّا لم يتمّ الخلق للتّمانع) [٥]، وكذلك الأمر في باب الصفات، فإنه سبحانه وتعالى: (عالم قادر فبذلك تتمّ الأفعال شاهد قضيّته لكمال الإيجاد والخلق ، ومريد وإلّا لم يتخصص شيء من المخلوقات ومقدّر لكلّ كائن وإلّا فالإرادة حادثة) [٦]، (وهو سبحانه منزه عن المكان بدليل العقل النافي للافتقار) [٧].

والمتأمل في النصوص السابقة، وما أكده ابن خلدون من أن أمهات العقائد معللة بأدلة العقل، يدرك أن ابن خلدون يرفع من شأن الدليل العقلي، خاصة في باب التوحيد والتنزيه، ولكن الأمر عنده ليس على الإطلاق .

فابن خلدون يرى صدق الدليل العقلي بشرط معرفته لحدوده، ومواطن استدلاله

---

(١) المقدمة ص ٥٨٠.

(٢) انظر: الشهرستاني: الملل والنحل جـ ١ ص ٩٩ . مؤسسة عيسى البابي الحلبي- القاهرة.

(٣) المقدمة ص ٥٨٠.

(٤) في بعض النسخ (بالاتحاد) ، والأصح (الإيجاد) لتوافقه مع مسألة الوجود.

(٥) المقدمة ص ٥٨٦.

(٦) المقدمة ص ٥٨٦.

(٧) المقدمة ص ٦٠٥.

وتعليلاته، وأنه إذا أعطي أكثر من مساحته برز الخلاف الذي أنشأ الجدال في علم الكلام.

ومساحته الحقيقية في باب الإلهيات عند ابن خلدون هي دفع الشبه، وتعليل العقائد، وليس إثباتها استقلالا عن دليل السمع، فالدليل العقلي هو الأساس الرئيس في علم الكلام لدفع الشبه[١]. ، وهو موضوع علم الكلام الرئيس الذي تدفع به البدع وتزول الشكوك والشبه[٢]، (وليس الغرض من الدليل العقلي إثبات العقائد أو نفيها كما فعل الفلاسفة [٣]؛ حين زعموا تصحيح العقائد الإيمانية من قبل النظر لا من جهة السمع) [٤].

وهذا أحدث خلطا ولبسا عند بعض المتأخرين من علماء الكلام، فخلطوا بين علم الكلام والفلسفة، وأحدث لبسا على الناس؛ (وهو صواب لأنّ مسائل علم الكلام إنّما هي عقائد متلقّاة من الشّريعة كما نقلها السّلف من غير رجوع فيها إلى العقل ولا تعويل عليه بمعنى أنّها لا تثبت إلّا به فإنّ العقل معزول عن الشّرع وأنظاره وما تحدّث فيه المتكلّمون من إقامة الحجج فليس بحثا عن الحقّ فيها، فالتّعليل بالدّليل بعد أن لم يكن معلوما هو شأن الفلسفة بل إنّما هو التماس حجّة عقليّة تعضد عقائد الإيمان ومذاهب السّلف فيها وتدفع شبه أهل البدع عنها الّذين زعموا أنّ مداركهم فيها عقليّة، وذلك بعد أن تفرض صحيحة بالأدلّة النّقليّة كما تلقّاها السّلف واعتقدوها وكثير ما بين المقامين) [٥]، ويرجع ابن خلدون السبب في ذلك إلى أن (مدارك صاحب الشّريعة أوسع لاتّساع نطاقها عن مدارك الأنظار العقليّة فهي فوقها ومحيطة بها؛ لاستمدادها من الأنوار

(١) المقدمة ص ٥٨٨. وهذا النص يوضح سر لجوء أهل السنة للدليل العقلي.

(٢) المقدمة ص ٥٩٠.

(٣) والمعتزلة حين جعلوا العقل أساس التكليف والاستدلال مقدما على السمع في كثير من مسائل العقيدة.

(٤) المقدمة ص ٧٠٧، وسيأتي بيان هذه العبارة عند الحديث عن النبوات وإثباتها.

(٥) نفسه ص ٦٥٣-٦٥٤.

الإلهيّة فلا تدخل تحت قانون النّظر الضّعيف والمدارك المحاط بها) (١)، والواجب أن نقدم مدرك الشرع على مداركنا وأن تحصل فيه ثقة أكبر عن غيره: (ولا ننظر في تصحيحه بمدارك العقل ولو عارضه بل نعتمد ما أمرنا به اعتقادا وعلما، ونسكت عمّا لم نفهم من ذلك ونفوّضه إلى الشّارع ونعزل العقل عنه) (٢).

وأما علماء الكلام المتقدمين فقد لجأوا للدليل العقلي لمجاراة الخصوم لأجل دفع الشبه، فاحتاجوا إلى الرد عليهم من جنس معارضاتهم(٣) واستدعى ذلك الحجج النظرية ومحاذاة العقائد السلفية بها(٤).

ويطبق ابن خلدون تلك الجدلية السابقة بين النص والعقل في باب النظر إلى الأسباب والاعتماد عليها، مؤكدا على أن للعقل مجال ينتهي إليه، وينبغي ألا يتجاوزه إذا وصل إليه، وأن التفكر فيما بعد حدود العقل يعتبر مضيعة للفكر فيما لا يفيد؛ إذ لا يستطيع العقل الوصول إلى سببه أو غايته : (فلذلك أمرنا بقطع النّظر عنها وإلغائها جملة والتّوجّه إلى مسبّب الأسباب كلّها وفاعلها وموجدها لترسخ صفة التّوحيد في النّفس على ما علّمنا الشّارع الّذي هو أعرف بمصالح ديننا وطرق سعادتنا لاطّلاعه على ما وراء الحسّ. قال صلّى الله عليه وسلّم: «من مات يشهد أن لا إله إلّا الله دخل

---

(١) نفسه

(٢) نفسه

(٣) ما ذكره ابن خلدون واضح تمام الوضوح في جل كتب علم الكلام سواء من المتقدمين أو من المتأخرين، فهم يأتون بالمسألة المراد بحثها ثم يدللون عليها إثباتا بدليل النص إذا كان الغرض الإثبات فقط، ثم يزيدون دليل العقل في الإثبات والدفاع، وأحيانا يكون الدليل العقلي مشتقا من دليل السمع، أو شارح له، وفي أحيان أخرى مدافعا عن الإثبات به. انظر على سبيل المثال لا الحصر: الإمام الأشعري: اللمع ص ٦١-٦٤ ، تحقيق : حمودة غرابة. مطبعة مصر. بدون تاريخ، السعد التفتازاني: شرح المقاصد ج ٤ ص ١٠١، تحقيق: الدكتور/ عبدالرحمن عميرة . عالم الكتب، ط ٢ ١٤١٩ه، ١٩٩٨م. الإمام البيجوري: شرح جوهرة التوحيد. تحقيق: أ.د/ علي جمعة. دار السلام ط١ ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٢م.

(٤) المقدمة ص ٦٥٤، وانظر ص ٥٨٨، ٥٩١.

الجنّة» (١). فإن وقف عند تلك الأسباب فقد انقطع وحقّت عليه كلمة الكفر وأن سبح في بحر النّظر والبحث عنها وعن أسبابها وتأثيراتها واحدا بعد واحد فأنا الضّامن له أن لا يعود إلّا بالخيبة. فلذلك نهانا الشّارع عن النّظر في الأسباب وأمرنا بالتّوحيد المطلق «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ) (سورة الإخلاص) ولا تثقنّ بما يزعم لك الفكر من أنّه مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها والوقوف على تفصيل الوجود كلّه وسفه رأيه في ذلك) (٢) ، ومثال ذلك في الشاهد الأصم والأعمى فانحصار الوجود مختلف عندهما عن الصحيح، وكذلك الحيوان لو نطق لأنكر جنس المعقولات كلها : (فاتّهم إدراكك ومدركاتك في الحصر واتبع ما أمرك الشّارع به من اعتقادك وعملك فهو أحرص على سعادتك وأعلم بما ينفعك لأنّه من طور فوق إدراكك ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك) (٣)، وهذا ليس اتهاما للعقل بالتقصير أو عدم النفع(بل العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينيّة لا كذب فيها، غير أنّك لا تطمع أن تزن به أمور التّوحيد والآخرة وحقيقة النّبوة وحقائق الصّفات الإلهيّة وكلّ ما وراء طوره فإنّ ذلك طمع في محال.) (٤) .

فهذه المسائل لا بد فيها من تقديم السمع على العقل عند الإثبات وليس العكس لقصوره عن الإدراك فيها استقلالا بذاته لارتقاءها عن إدراكنا، وإن فعل العقل ذلك ، (ضل في بيداء الأوهام ويحار وينقطع. فإذا التّوحيد هو العجز عن إدراك الأسباب

---

(١) لفظ الحديث بتمامه : (عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل: " اعلم أنه من مات يشهد أن لا إله إلا الله، دخل الجنة)، أخرجه الإمام أحمد في مسنده، باب مسند أنس بن مالك(رضي الله عنه) جـ ١٩ ص ٣٤٠. تحقيق : شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون الناشر: مؤسسة الرسالة،ط ١، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م

(٢) المقدمة ص ٥٨٠.

(٣) المقدمة ص ٥٨١.

(٤) المرجع السابق نفسه

وكيفيّات تأثيرها وتفويض ذلك إلى خالقها المحيط بها) (١) .

وبهذا: يعلم أن ابن خلدون في باب الإلهيات لا يقدم الدليل العقلي أبدا في بعض المسائل لإفادته اليقين بذاته نفيا أو إثباتا؛ بل لأنه سبيل للدفاع عن الإثبات الحاصل بالنص، ولأجل مجابهة المعارض فقط.

ففي باب الإلهيات الدليلان مكملان لبعضهما لا ينفكان، ومن الضرورة وجودهما معا، أحدهما للإثبات وهو النص، والآخر للدفاع وتأكيد الإثبات وهو الدليل العقلي الصحيح، والذي يرى ابن خلدون أن له شروطا قبل الاستدلال أوضحها البحث فيما سبق، وأن له حدودا عند الاستدلال لا يتخطاها، وإلا صار الفكر به عبثا لا يفيد،

وكذلك فإن ابن خلدون يرى أن الأدلة العقلية مؤقتة في حال الدفاع وظهور قضايا جديدة تحتاج لتعليل، وأنه ينبغي الاستفادة من أدلة السابقين دون الانشغال بأدلة جديدة تصرف عن صحيح النظر إلى مجرد الافتتان بعرض الأدلة، كما فعل الفلاسفة ومن حذا حذوهم(٢)، وأنه ليس كل الأمة مطالب بتعلم الدليل العقلي وأساليب الحجاج، ويستدل ابن خلدون على ما ذهب إليه قائلا: (ولقد سئل الجنيد رحمه الله عن قوم مرّ بهم بعض المتكلّمين يفيضون فيه فقال: ما هؤلاء؟ فقيل: قوم يتزّهون الله بالأدلّة عن صفات الحدوث وسمات النّقص. فقال: «نفي العيب حيث يستحيل العيب عيب» لكنّ فائدته في آحاد النّاس وطلبة العلم فائدة معتبرة إذ لا يحسن بحامل السّنّة الجهل بالحجج النّظريّة على عقائدها) (٣).

وطبق ابن خلدون ذلك المنهج في تلخيصه وتعليقه على كتاب المحصل للرازي، والذي أسماه لباب المحصل؛ حيث أقر بكل ما ذهب إليه الإمام الرازي من كفاية دليل

---

(١) المقدمة ص ٥٨٢.

(٢) انظر: المقدمة ص ٥٩٠-٥٩١.

(٣) انظر: المقدمة ص ٥٩٠-٥٩١.

العقل في بعض المسائل الخلافية خاصة في باب درء الشبهات.

ومثال ذلك: بينما يؤكد موافقته على أن وجوب النظر سمعي (١)، وأن ثبوت القدم لله تعالى وصفاته سمعي؛ لأن دليل التمانع لا يدل على نفي قديم عاجز(٢)، نجده يقدم الدليل العقلي ويعلق عليه تأكيدا في إثبات وجود الله تعالى من خلال حدوث الجواهر والأعراض (٣) ، ثم يجمع بين الدليل العقلي والسمعي في إثبات الصفات فرادى، مقدما الدليل العقلي؛ لأن المقام في الحجاج على نحو قوله، وليس للإثبات المطلق، مثل صفة السمع والبصر، وصفة الكلام(٤).

وبذلك كله: يتضح أن ابن خلدون لا يقدم أحد الدليلين على الآخر عند التعارض؛ لأنه لا يوجد تعارض في الأصل؛ طالما استوفى كل من واحد من الدليلين شرطه، وكان في بابه.

ثانيا: النبوات والسمعيات

عد العلماء النبوات والسمعيات أو الغيبيات من باب المسائل السمعية التي لا تؤخذ إلا من خلال خبر الصادق(٥).

وتابع ابن خلدون الإمام الرازي على هذا التقسيم، (٦) وبناء على ذلك فإن ما يتعلق بالنبوات وأمور الآخرة من البرزخ والمعاد وغيرهما طريق وجوبه النص دون العقل،

(١) انظر: ابن خلدون: لباب المحصل في أصول الدين ص ٧٨. تحقيق وتعليق: الدكتور/ عباس محمد سليمان. دار المعرفة الجامعية ١٩٩٦م.
(٢) انظر: لباب المحصل ص ١٠٤.
(٣) انظر: لباب المحصل ص ١٣٩.
(٤) انظر: لباب المحصل ص ١٥١-١٥٢.
(٥) انظر: شرح المقاصد جـ ٥.
(٦) انظر: لباب المحصل ص ١٧٥ .

وإن كان العقل يقتضي هذه الأمور(١).

أما الحجاج عنهما فيقدم فيه دليل النص، وإن احتيج لدليل العقل يكون تعقيبا وليس أصلا أو حتى معتمدا؛ لأن الأصل في النبوات والسمعيات النص كما تقدم.

وقد طبق ابن خلدون ذلك في عدد من المسائل (٢) ، ومنها:

أولا: النبوات (٣).

تحدث ابن خلدون عن النبوة والمعارف المتحصلة للنبي وكيفية تحصيلها، مؤكدا على أن النبوة اصطفاء من الله تعالى، وليس لها علاقة بخاصية مكتسبة في ذات النبي، وأن مناط إثباتها هو الشرع المؤيد بالمعجزة وليس شيئا آخر(٤)، وأن المعارف المكتسبة بالنبوة تكون من خلال الوحي فقط (٥).

والبشر محتاجون للنبوات لأجل تهذيبهم في الدنيا وتحقيق نجاتهم في الآخرة(٦)، وليس ذلك كله حاصل إلا من خلال الشرع فقط، وليس للعقل فيه دخل، وبذلك يبطل عند ابن خلدون ما ذهب إليه الفلاسفة من كفاية دليل العقل في إثبات وجوب النبوة وأنها خاصة بالطبع في الإنسان، حين ذهبوا إلى (أنّه لا بدّ للبشر من الحكم الوازع ثمّ يقولون بعد ذلك وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحد من البشر وأنّه لا بدّ أن يكون متميّزا عنهم بما يودع الله فيه من خواصّ هدايته ليقع التّسليم له والقبول منه حتّى يتمّ الحكم فيهم وعليهم من غير إنكار ولا تزيّف، وهذه القضيّة

(١) المقدمة ص ٥٦، ٦٠٧.

(٢) أكثر هذه المسائل في لباب المحصل، حيث تابع ابن خلدون الإمام الرازي في كل ما ذهب إليه في ذلك الباب.

(٣) لباب المحصل ص ١٧٥.

(٤) انظر: المقدمة ص ٦٠٧.

(٥) انظر: المرجع السابق ص ١١٥-١١٧.

(٦) انظر: المرجع السابق ص ٦٠٧

للحكماء غير برهانيّة كما تراه إذ الوجود وحياة البشر قد تتمّ من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه أو بالعصبيّة الّتي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادّته فأهل الكتاب والمتّبعون للأنبياء قليلون بالنّسبة إلى المجوس الّذين ليس لهم كتاب فإنّهم أكثر أهل العالم ومع ذلك فقد كانت لهم الدّول والآثار فضلا عن الحياة وكذلك هي لهم لهذا العهد في الأقاليم المنحرفة في الشّمال والجنوب بخلاف حياة البشر فوضى دون وازع لهم البتّة فإنّه يمتنع وبهذا يتبيّن لك غلطهم في وجوب النّبوّات وأنّه ليس بعقليّ وإنّما مدركة الشّرع كما هو مذهب السّلف) (١)؛ وهذا راجع إلى أن أمر النبوة فوق العقل، وإن كان العقل يدركه،(غير أنّك لا تطمع أن تزن به أمور التّوحيد والآخرة وحقيقة النّبوة وحقائق الصّفات الإلهيّة وكلّ ما وراء طوره فإنّ ذلك طمع في محال) (٢).

والنبوة في إثباتها، والمعارف المتحصلة من خلالها تحصل بأمر الله تعالى، ولا يصح قياسها على شيء آخر(فالمدارك الحسيّة فيها مجهولة الكيفيّة عند وجدانيّته عندهم بأوضح من اليقين. فيرى النّبيّ الله والملائكة، ويسمع كلام الله منه أو من الملائكة، ويرى الجنّة والنار، والعرش والكرسيّ، ويخترق السّماوات السبع في إسرائه ويركب البراق فيها، ويلقى النّبيّين هنالك، ويصلّي بهم، ويدرك أنواع المدارك الحسيّة، كما يدرك في طوره الجسمانيّ والنوميّ، بعلم ضروريّ يخلقه الله له، لا بالإدراك العاديّ للبشر في الجوارح) (٣) ، وبذلك يستوي في مقام النبوة الوحي بأنواعه كلها سواء كان في صحو أو في منام(٤) .

---

(١) انظر: المرجع السابق ص ٥٦.

(٢) انظر: المرجع السابق ص ٥٨٢.

(٣) نفسه ص ٦٠٩

(٤) انظر: المرجع السابق نفسه بتصرف.

ثانيا: إثبات أمور الآخرة من البرزخ والحساب والميزان وغيرها .[١].

يقسم ابن خلدون أطوار العالم البشري إلى أربعة أطوار، هي عالم الحس، وعالم والنوم، وطور النبوة، وطور الموت: (الّذي تفارق أشخاص البشر فيه حياتهم الظاهرة إلى وجود قبل القيامة يسمّى البرزخ يتنعّمون فيه ويعذّبون على حسب أعمالهم ثمّ يفضون إلى يوم القيامة الكبرى، وهي دار الجزاء الأكبر نعيما وعذابا في الجنّة أو في النار) (٢)، وشاهد هذا الطور: (ما تنزّل على الأنبياء من وحي الله تعالى في المعاد وأحوال البرزخ والقيامة، مع أنّ العقل يقتضي به) (٣).

فمسائل الآخرة سبيل معرفتها الوحي فقط، والاستدلال عليها يكون بالنص دون العقل، فالعقل قد يدرك بعض حقائق الآخرة لكنه لا يستطيع الاستدلال عليها أو معرفة تفاصيل شيء منها إلا من خلال خبر الصادق، فالمعتمد في أمور الآخرة هو السمع(٤) .

(١) انظر: لباب المحصل ص ١٨٩.
(٢) المقدمة ص ٦٠٧.
(٣) نفسه .
(٤) انظر: لباب المحصل ص ١٦١.

الخاتمة

أهم نتائج البحث وتوصياته

١ – إن النص والعقل لا يمكن الاستغناء عنهما والاكتفاء بأحدهما دون الآخر في الاستدلال، فالنص لا يمكن تغييره لكن يمكن فهمه من خلال معطيات واجتهادات تؤدي بالنهاية إلى تحقيق المراد من النص، والعقل أعطاه الله تعالى القدرة على الفهم، وأمر الناس جميعا – فضلا عن علمائهم– بالتعقل في آياته.

٢ – استخدم ابن خلدون النص والعقل في الاستدلال على مسائل الكلام دون أن يؤثر أحدهما على الآخر.

٣ – أصل ابن خلدون وأطر لفكرة ضرورية مفادها أن للنص مجال في الاستدلال لا يمكن دخول العقل فيه بحال من الأحوال، وهو مجال إثبات كليات العقائد، أما فروعها والتدليل عليها في باب الدفاع عنها فوسيلته العقل الذي يستحب أن يكون من خلال النص.

٤ – لا يقدم ابن خلدون النص أو العقل عند التعارض، وذلك لأنهما لا يتعارضان عنده طالما كان كل منهما في بابه، وباب النص – كما أسلفت– الاستدلال على أصول العقائد وكلياتها، والعقل بابه الدفاع عنها.

٥ – أكد ابن خلدون على الممازجة في الاستدلال بين النص والعقل في باب الإلهيات من علم الكلام، فالنص يثبت والعقل يؤكد ويدافع.

٦ – اختلف الأمر في باب الغيبيات والسمعيات، فالعبرة في هذا الباب بالنص فقط، وإن كان العقل يدركها ولا ينكرها، فالمعتمد في الغيبيات السمع.

٧ – ظهر من خلال البحث أن أهل السنة – متقدمين ومتأخرين– يقدمون النص

على العقل في الاستدلال على المسائل الكلامية، وأن بعض كتبهم إنما ظهر في جملتها ذكر العقل فقط؛ لأنها كتبت في أصلها للدفاع عن العقيدة ضد المشككين فيها، وهذا من حسن الصنيع وليس من سيئه كما يزعم بعض المحدثين.

أهم المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم

ثانيا: السنة المطهرة

ثالثا: كتب ابن خلدون

١ – ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر. تحقيق: خليل شحادة. دار الفكر– بيروت. لبنان. ط٢ ١٤٠٨هـ . ١٩٨٨م.

٢ – لباب المحصل في أصول الدين . تحقيق وتعليق: الدكتور/ عباس محمد سليمان. دار المعرفة الجامعية ١٩٩٦

رابعا: أهم المراجع

١ – إحياء علوم الدين الإمام الغزالي. دار المعرفة. بيروت– لبنان.

٢ – الأعلام : خير الدن الزركلي. دار العلم للملايين ط ١٥ . ٢٠٠٢م.

٣ – التعريفات .الشريف الجرجاني. دار الكتب العلمية . بيروت–لبنان. ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٤ – شذرات الذهب في أخبار من ذهب. ابن العماد الحنبلي. تحقيق محمود الأرناؤوط. دار ابن كثير. دمشق– بيروت. ط ١ ١٤٠٦هـ .١٩٨٦م.

٥ – شرح المقاصد . سعد الدين التفتازاني ، تحقيق: الدكتور/ عبدالرحمن عميرة . عالم الكتب، ط ٢ ١٤١٩ه، ١٩٩٨م.

٦ – شرح جوهرة التوحيد. الإمام البيجوري. تحقيق: أ.د/ علي جمعة. دار السلام ط١ ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٢م.

٧ – الكليات . أبو البقاء الكفوي. تحقيق: عدنان درويش– محمد المصري. مؤسسة الرسالة . بيروت– لبنان. بدون تاريخ.

٨ – لسان العرب . ابن منظور . دار صادر. بيروت. لبنان ط ٣ ١٤١٤هـ.

٩ – اللمع .الإمام أبو الحسن الأشعري ، تحقيق : حمودة غرابة. مطبعة مصر. بدون تاريخ.

١٠ – مسند الإمام أحمد. تحقيق : شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون الناشر: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م

١١ – المعجم الفلسفي . جميل صليبا. دار الكتاب اللبناني. بيروت– لبنان ١٩٨٢م.

١٢ – مقدمة كتاب لباب المحصل. د.عباس سليمان دار المعرفة الجامعية .١٩٩٦م.

١٣ – الملل والنحل الإمام الشهرستاني . مؤسسة عيسى البابي الحلبي– القاهرة.

١٤ – منهج الأشاعرة بين الحقيقة والأوهام .الغرسي . دار القادري للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١ ٢٠٠٨.

١٥ – منهج الإمام المحاسبي في الوصول لليقين د.عبدالرؤف محمود. بحث منشور في حولية كلية أصول الدين بطنطا العدد ٩ . ٢٠١٧م.

١٦ – موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم. التهانوي. تحقيق: د. علي دحروج. مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٩٩٦م.

١٧ – هدية العارفين. إسماعيل الباباني دار إحياء التراث العربي. بيروت– لبنان.

١٨ – الوصايا. الإمام الحارث المحاسبي. تحقيق : عبدالقادر عطا . دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط ١. ١٤٠٦هـ.

فهرس الموضوعات

المقدمة ٩٤٥
المبحث الأول: التعريف بمفردات البحث..... ٩٤٦
أولا : التعريف بابن خلدون..... ٩٤٧
ثانيا: المقصود بالجدلية..... ٩٤٨
ثالثا: النص..... ٩٤٩
رابعا: العقل..... ٩٤٩
المبحث الثاني: مصادر المعرفة عند ابن خلدون ٩٥٢
أولا: النص عند ابن خلدون..... ٩٥٣
ثانيا: العقل..... ٩٥٤
ثالثا: الوجدان الصحيح ٩٥٥
المبحث الثالث : جدلية النص والعقل في علم الكلام وتطبيقاتها ٩٦٠
أولا: الإلهيات ٩٦١
ثانيا: النبوات والسمعيات..... ٩٦٧
الخاتمة..... ٩٧١
أهم المصادر والمراجع ٩٧٣
فهرس الموضوعات..... ٩٧٥